

ثورة نوفمبر

مقدمات وغايات ومكاسب

تمثل ثورتنا المباركة، منعرجا هاما في حركة المجتمع، وتحولا جادا في خط السير التحريري، وإعلانا عن نهاية مرحلة غير مأسوف عليها، وبداية فاعلة في مجال البناء الوطني.

بقلم: الأستاذ التهامي مجوري



وهذا الرباعي (المنعرج - التحول - النهاية - البداية)، في ذاته حدث هام يحمل في طياته، مشروعا جديدا في حياة المجتمع، بعد أكثر من قرن من المعاناة، والمقاومة المستمرة ذات الألوان المتعددة، من المقاومة المسلحة التي استمرت إلى غاية 1916 بثورة الأوراس الأشم، إلى العمل الإصلاحي الذي لم ينقطع، والثورة العلمية التربوية التي صاحبت المجتمع طيلة فترة الاحتلال، فكانت الخميرة لما بعدها من الإنجازات الوطنية الصالحة، وأخيرا النضال السياسي متعدد المشارب المشبع بالروح الوطنية الفاعلة الذي كان يمثل المحضن والورشات التدريبية للوطنيين الخالص.

هذه الثورة المباركة ينظر إليها الناس بروى متباينة، بسبب تباينهم في تقييمها وتقدير ما حققته، وموقعها من الأوضاع الدولية يومئذ... فمنهم من نظر إليها على أنها حتمية من حتميات التاريخ... ولم يكن بد للمجتمع الجزائري إلا الاستجابة لهذه الحتمية، ومنهم من رأى أنها بداية لمشروع عظيم تجنى ثماره فيما بعد، وبالتالي فإن قيمتها فيما بعدها.. وثالث يرى أنها مجرد فعل وطني حقق غايته القريبة والبعيدة معا وهي افتكاك الاستقلال عن سلطات الاستعمار! !

في ضوء هذه الرؤى المتباينة، تكون وقفنا في هذه المناسبة الطيبة، التي اصطلح على تسميتها بالذكرى الخمسين لاندلاع ثورة نوفمبر المجيدة.

البذور المؤسسة للثورة

لقد كانت الثورة مسبقة بعمل نهضوي سياسي علمي وتربوي، عمل على تفجير الطاقات الاجتماعية الكامنة. وهذا العمل قد اختلطت فيه الأعمال الناجحة بالأعمال الفاشلة، والأعمال المؤثرة، بالانفعال العاطفي التأثير، والنظر الجزئي القاصر بالنظر الكلي الكامل. والعامل المشترك بين كل هذه الأعمال الناجحة والفاشلة على حد سواء، هو أن جذوة الثورة لم تتطفئ منذ وطئ الاستعمار البلاد إلى استعادة البلاد سيادتها.

لقد استمرت الثورات متتالية من 1830 تاريخ دخول الاستعمار بلادنا، إلى غاية 1916 تاريخ فشل آخر محاولة مسلحة، في مواجهة قوى الاستعمار العاتية، التي قام بها أبطال الأوراس. ومنذ ذلك الحين اتجه العمل الوطني، إلى إعادة النظر في التأسيس إلى عمل تكون له نتائج المثمرة... ولو بعد حين، في مجالات متنوعة للحفاظ على الهوية الحضارية وعقيدة الإسلام واللسان العربي، وقد انسأقت الأمة إلى هذا التوجه بشعور ومن غير شعور؛ لأنها رغم ضعفها وقلة حيلتها في مقاومة الاستعمار، تملك مبدءا مرجعيا قرانيا لا يسمح لها بالتخلي عن المقاومة مهما كانت الأوضاع، ويحفظ لها روح المقاومة إلى أن يأتي الله بأمره ﴿...ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ [النساء: 141].

وإعادة النظر والتأسيس لهذا العمل، يمكن التأريخ له، ببداية بذور العمل الإصلاحي سنة 1913 التي بدأ يبذرهما الشيخ عبد الحميد ابن باديس وإخوانه، الذين التحقوا به وانضموا لحركته، بما قاموا به من أعمال تعليمية وتربوية وتوعوية، حيث وجهوا جهودهم لإذكاء وعي الناس بأهمية الاطلاع على تراثهم والعمل من أجل نشر المعرفة، وتربيتهم على مبادئ الإسلام وأخلاقياته وحب الوطن وحب الخير لأبناء الوطن، وإعداد المواطنين للثورة المرتقبة، إضافة إلى ما كانت تقوم به الزوايا ودور العلم، في الحفاظ على الشخصية والدفاع عنها، وقد كانت هذه الجهود مسبقة بطبيعة الحال بجهود أخرى، قام بها شيوخ وعلماء.

وإلى جانب هذا العمل الإصلاحي التربوي، الذي لا يظهر منه للعيان إلا تحفيظ القرآن الكريم وتدريس أحكام الفقه والأصول وقواعد اللغة العربية، وجدت جهود أخرى سياسية، قام بها رجال وطنيون لهم غيرة على الدين وعلى الوطن والعربية وكان همهم الأكبر مقاومة الاستعمار وأذنا به، متمثلة أساسا، فيما قام به الأمير خالد رحمه الله الذي قام بتحريك سياسي يشعر الاستعمار بحياة الأمة، ويشهد العالم على

جريمة الاستعمار الاستيطاني الذي أراد قتلها ومحوها من الوجود، وأخرى إعلامية قام بها أفاذ مثل عمر راسم وعمر قدور وابراهيم أبو اليقظان وغيرهم، حيث أسسوا جرائد تحمل نفس الهم الوطني الجاد.

وابتداء من سنة 1925، إلى سنة 1937، كانت حركة الإصلاح هي الفعل الجماهيري المؤثر، بكل ما تحمل من معان، سواء في جانبها السياسي أو الاجتماعي، حيث تحولت هذه الحركة من مجرد فعل فردي مشتت يقوم به أفراد موزعون على الوطن، إلى عمل جماعي، تلتقي فيه جهود المصلحين تلك وتثمر.

وكانت لهذه المرحلة الذهبية وجهان للعمل:

وجه كان فيه العلماء يقومون بالاتصال ببعضهم، فكان التركيز في هذه المرحلة على لملمة الجهود، والسعي إلى إنشاء عمل منظم، إلى جانب العمل الإعلامي، حيث تأسست المنتقد سنة 1925، ثم الشهاب، وقبلها الإصلاح، وعلى صفحات هذه الجرائد والمجلات كانت الدعوة إلى لم شمل العلماء على المستوى الوطني، وهي الجهود التي أثمرت تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، وهنا يبرز الوجه الثاني، حيث شرع أعضاؤها -جمعية العلماء- في تأسيس المدارس، والمساجد، وإصدار العناوين الإعلامية التي تعبر عن وجودها، وتشجيع مبادئها في أوساط الجماهير، فكانت السنة والصراط والشرعية والبصائر. إلى جانب الاتصال بأهل الفضل للمساهمة في أعمال البر، بتأسيس المساجد والمدارس ورعايتها.

أما على الصعيد السياسي الحزبي فقد تأسس حزب نجم شمال إفريقيا بفرنسا في سنة 1926، واستمر في نضاله التحسيسي بضرورة الدعوة إلى الاستقلال الوطني، إلى أن حل الحزب في سنة 1937، لينتقل إلى الجزائر بتسميته الجديدة (حزب الشعب الجزائري)، وفي تلك الفترة أي قبل ولادة حزب الشعب، لم تجد فكرة المطالبة بالاستقلال صدق واسعاً، رغم أن هذا اللفظ ساكن في القلوب -، بسبب وجود النجم في فرنسا من ناحية، وضعف الأرضية السياسية التي تبنى عليها هذه اللفظة من ناحية أخرى...، حيث أن الأرضية السياسية الحزبية يومئذ، مبنية على المطالبة بالاندماج في إطار مشروع النخبة، أو المطالب النقابية المحدودة في إطار الحزب الشيوعي...

وابتداء من سنة 1937، واجتياز الجزائر مرحلة المنعرج التاريخي الهام المتمثل في المؤتمر الإسلامي سنة 1936، الذي كان أول عمل سياسي جماعي يظهر للوجود، بذلك المستوى الوطني.. وهذا المؤتمر بقطع النظر عن محتوياته

والمطالب التي ذهب بها إلى فرنسا، فإنه كشف عن أكثر من قضية مفصلية، نوجزها فيما يلي:

1- فرنسا لا تقدم شيئا لأهل مستعمراتها...، وقد عبر الشيخ بن باديس عن ذلك بقوله "أن أوان اليأس من فرنسا"؛ بل غير شعار مجلته الشهاب فأصبح "لنعتد على أنفسنا ونتكل على الله".

2- الكشف عن هشاشة النخبة وفشلها في إقناع غيرها بجدوى الاندماج، فلم تستطع أن تقنع الإدارة بهذا الطرح، كما لم تعمم الفكرة لدى الجماهير، بالعكس فإن المطالبة بالاندماج محل تهمة الجماهير وعرضة للتخوين.

3- استهداف القوى الفاعلة والمؤثرة في المجتمع، سياسية كانت أو إصلاحية، من قبل الإدارة الاستعمارية، حيث حلت حركة نجم شمال إفريقيا بفرنسا لفاعلية الفكرة التي تحملها، رغم محدودية تأثيرها في الداخل، واتهام أحد رجال جمعية العلماء وهو الشيخ الطيب العقبي، باغتيال الشيخ كحول بن دالي مفتي الجزائر! تشويها لصورة العلماء في أعين الناس.

وابتداء من هذا التاريخ، تحولت الجزائر إلى مسرح للغليان السياسي والاجتماعي الفعال، وحركة جماعية منتجة سياسيا...، على ما بين فئاتها من اختلافات في وجهات النظر، وفي صور التعاطي مع الأحداث، إلا أن جميعها يمكن إدراجه تحت مسمى "المطالبة بالاستقلال والعمل له"، كل بوسائله وإمكانياته الخاصة.

الثورة بين المقدمة والنتيجة

لا شك أن اندلاع الثورة سنة 1954، كان ثمرة ونتيجة لتلك الجهود السياسية والتربوية الفاعلة، ولكنها بحجم التحرك الذي ظهرت به في البداية واستمرت، توحي بأنها مشروع ومقدمة لما بعدها من الإنجازات، وليست مجرد عمل عسكري يكتفي بدحر الاستعمار...

وسواء نظرنا للثورة كنتيجة طبيعية لجهود مخلصات وفاعلة، أو كمقدمة لما ينبغي أن يكون بعد الاستقلال، فهي ثورة عامة وعارمة، الفضل فيها لله ثم للشعب الذي احتضنها، ودفع غالي الأثمان في سبيل إنجاحها، ويخطئ من يربطها بشخص أو جماعة أو حزب أو جمعية؛ لأن العبرة في الثورات بالثمار والمقدمات، وليس بمجرد فعل في لحظة معينة من لحظات التاريخ، بل إن أحداث اندلاعها كما يرويها بعض المشرفين عليها في البداية، كانت في جو من الصراعات السياسية

والاختلافات الاجتهادية، لا تسمح لها بالاستمرار، أو حتى بالانطلاق، ولكن الرهان كان على احتضان الشعب لها، الذي تشعب بقيم الحرية والتحرر وامتلاً قلبه بها...، وعلى هذا قال بن مهدي رحمه الله " القوا بالثورة إلى الشارع يحتضنها الشعب...".

فمن حيث هي نتيجة لجهود وطنية سابقة قام بها السياسيون والمصلحون، فقد تحققت بمجرد الإعلان عنها، فلم يتخلف عنها أحد إلا من كان في وطنيته لوثة.. رغم أن ظروف الإعلان عنها، كانت تحيط به الكثير من المخاطر؛ بل ربما كانت مغامرة، كما يذكر محمد بوضياف رحمه الله؛ لأن الذين التقوا وقرروا تفجيرها ليحتضنها الشعب بعد ذلك، كان معظمهم من الشباب، ولم تكن لهم مكانات قيادية بارزة، باستثناء سي مصطفى بن بولعيد، الذي كانت له وجاهة في قومه بالأوراس، أما الباقي فقد كانوا أعضاء في المنظمة الخاصة، وهي فصيل سري مسلح لا يسمح لأحد منهم أن يكون معروفاً أو بارزاً...، وإعلان ثورة بهذا الحجم وهذا المستوى، لم يكن لينجح لو لم يجد في المجتمع بذوراً ناضجة من الإيمان بضرورة خوض المعركة من أجل الاستقلال، واستعداداً للبذل والعطاء؛ لأن التنظيمات مهما كانت دقيقة أو شاملة وموزعة عبر التراب الوطني... تبقى محدودة ومحجمة، لارتباطها بهذا الفصيل أو ذلك، أو بهذا التوجه أو غيره.. وأكبر أسرار نجاح الثورة الجزائرية في جماهيريتها وتعميمها على كل الشرائح، وسرعة هذا التعميم، كان بسبب الاستعدادات الكامنة في قلوب الجميع...

أما من جهة أنها مقدمة، فيفهم من بيان أول نوفمبر الذي نص على بناء دولة ديمقراطية اجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية، وهذا يعني أنها بقدر ما كانت تهدف إلى استثمار كل الجهود الوطنية الفعالة في الساحة، فإنها كثورة تعمل على التخلص من الاستعمار وأدراجه، تهدف إلى تحقيق الاستقرار السياسي والرفاه الاقتصادي والاجتماعي والنماء الثقافي والتربوي.

فالثورة هي نتيجة لجهود ضخمة متضافرة ومتنوعة، طيلة أربعة عقود، ومقدمة لما يجب أن تقوم به الدولة الوطنية بعد الاستقلال... الذي يمثل النتيجة الثانية.

لقد تحققت المقدمة الأولى المتمثلة في جهود الحركة الوطنية، النتيجة الأولى العملاقة، فأنجزت الثورة واحتضنتها الأمة، وحققت مكاسب هامة وهائلة، فما حجم ما تحقق في النتيجة الثانية، بعد تلك الجهود الهائلة؟

هل حققت ثورة نوفمبر غاياتها؟

لقد حققت الثورة استعادة الاستقلال الوطني، وهو أول الثمار المباشرة لكل تلك الجهود الوطنية، وآخرها النتائج البعيدة للثورة التحريرية المباركة، ولكنها لم تستطع الحفاظ على الاطراد الثوري الذي كان الشرارة الأولى لانطلاقها، فلم تحفظ الثورية في نفوس الجماهير، بالمستوى الذي كانت عليه، وهي في ساحات الوغى...، إلا في قلة قليلة من بقايا المجاهدين الذين كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً أن انتصارهم على فرنسا لم يكن النهاية، وإنما بداية لمرحلة أكبر، ولذلك كنا نسمع أحاديثهم في المناسبات المختلفة، أن قتال الفرنسيين يمثل الجهاد الأصغر وأما صناعة المستقبل فهو الجهاد الأكبر، ومن ثم كان ينبغي على العمل الثوري أن يتجه إلى هذه الناحية ليسير في الخط الذي ينسجم مع منطق الاستقلال ومع أهداف الثورة.

وربما تعددت الأسباب في تبرير هذا القصور؛ لأن من الناس -من- كان يرى أن طرد الاستعمار هو البداية والنهاية...، ومنهم من كان قصير النظر ففزع بالاستقلال عن فرنسا، ولو بالجوع والعري والجهل...، والأهم من كل ذلك أن الجماهير التي كانت المخزون الحقيقي للثورة، لم تتلق بعد الاستقلال خطاباً ملائماً، بحيث يجعلها وجهاً لوجه أمام الحقائق التي قامت من أجلها الثورة.

إن الخطاب الذي كنا نسمعه، خطاب ثوري، ولكنه خطاب نظري، ليس له امتداد واضح في الفعل اليومي، فالخطاب الذي كنا ننتظره خطاب واقعي عملي يترجم الاهتمامات ويدفع المواطنين إلى استيعابها فكثير من القضايا الحيوية، كان يمكن أن تكون محور جهود البناء الوطني مثل قضايا التنمية والمعرفة والتربية والإنسان.

ففي التنمية كان النهج اشتراكياً، وقد حقق بعض الضمانات الاجتماعية، التي تولد عنها عنصر مستهلك غير منتج، وأضحى يرى أن ذلك من بركات الاستقلال. والعجز عن إيجاد العنصر المنتج في المجتمع، هو أسوأ ما تصاب به الأمم، وقد حاولت السلطة أن تسد هذه الثغرات بالاهتمام بالثورات المتتالية (زراعية، ثقافية، صناعية)، ولكنها لم تفلح في إنقاذ الموقف بالقدر اللازم الذي يكفي للقضاء على السلبات، ويلبي حاجات المرحلة الاجتماعية والسياسية؛ لأن الموضوعات التي كانت محور هذه الثورات كانت أكبر من إمكاناتها، فلم نبدأ بتهيئة الإنسان الذي يستوعب هذه المشاريع، وينسجم معها...

أما على المستوى التربوي والعلمي والصحي، فقد حققت الجزائر قدراً لا بأس به، في مجال التربية والتعليم والصحة، ولكن بالقياس إلى النمو الاجتماعي، كان الناتج عجزاً في الإطار الاجتماعي العام، وهذا هو سر التناقض بين الأعداد الهائلة

من المتخرجين من الجامعات والمدارس التقنية من جهة، والبطالة المتفشية، وغياب روح الإبداع والمبادرة من جهة أخرى، وبين عدد المستشفيات التي تشيد وثمارها الطبية في الطب المجاني وما شابهه... والمردود الصحي على مستوى المجتمع. فكل ذلك مكاسب تثنى، ولكن هذه المكاسب عندما لا تكون في إطارها التكاملي لا تكون كافية...؛ لأن ما يتحقق من الأجزاء لا يكون ذا قيمة إلا في إطار ما تقرره الكليات، مهما كانت هذه الأجزاء خيرة... والسبب في ذلك أن الخط الثوري لم يبق مطردا بعد الاستقلال بنفس المستوى الذي كان قبل الاستقلال وأثناء الثورة، حيث دخلت عناصر جذابة للخط الثوري فشغلته عن الرسالة الهامة، وهي البناء الاجتماعي المستقل بكل حرية وصدق... قد يقول قائل، إن ما أضيف إلى المنهج الثوري بعد الاستقلال كان من الأمور المكملة والداعمة، وهذا لا يضر بالأصل!!

ولكن الواقع الذي ينبغي أن يبحث فيه هو: هل ما أضيف كان مبرمجا عند اندلاع الثورة؟! إذ المعروف أن الكثير من المقررات كانت بعد ذلك بكثير!!

ودخول عنصر غير مقرر مسبقا، أو ليس له جذور في المشروع المتكامل لا يكون له أثر كبير، وقد يكون له أثر عكسي... تماما مثل الماء الطهور - كما يقول بن نبي رحمه الله - الذي اختلط بغير جنسه من السوائل الطاهرة أو غير الطاهرة، فغيرت أحد أوصافه، - طعمه، لونه، ريحه - فإنه يصبح غير صالح للوضوء.

هذا ويمكن أن يدرج في الموضوع أن الثورة لم تفكر في حماية الثورة بعد الاستقلال بالقدر الذي عملت به على حمايتها أثناءها.. وهذا يفهم من قول الشهيد بن مهدي رحمه الله، عندما قال: ألقوا بالثورة إلى الشارع يحتضنها الشعب، ولا شك أن احتضان الشعب لها سيحقق مكاسب لا محالة، ولكن من يحفظ هذه المكاسب ويثمنها وينميها ويدعم جذوتها؟! إذا لم نعد الإنسان الذي يستوعب هذه المكاسب ويقدرها ويعمل على تنميتها. وهذا التفكير كان أثناء الثورة ولكنه بعدها ضعف وضعفت ثماره في الواقع.

ومهما تكن هذه السلبات التي تلمسها أجيالنا الصاعدة، وفق ما تراه من تحولات في هذا العالم، فلا تنسينا المكاسب الهامة التي حققها المجتمع في عدد من الميادين...، مثل هذا العدد الهائل من الإطارات والفنيين الذين لم توفر لهم الأطر ليفجروا فيها عبقريتهم، فهاجر العديد منهم إلى الغرب ونمو قدراتهم هناك، ومن المكاسب

أيضا ما تحقق من جهد في مستوى نشر اللغة العربية وتعميمها في مراحل التعليم العام، وانتشار التعليم الديني في كل المستويات، وهو من أهم روافد النضج الاجتماعي والأخلاقي، ورغم ذلك فإن هناك نقصا واضحا يتطلب التعجيل بتداركه وعلاجه.

والخلاصة التي يلمسها كل متصفح لسجل ثورتنا المباركة في ذكراها الخمسين، أن الثورة قد حققت اللحمة الوطنية والعمل الجماعي في أعلى صورته وأبهاها، فوحدت التيارات على قتال العدو، واستمرت على وحدتها إلى غاية الاستقلال رغم الهزات التي اعترتها خلال السنوات السبع التي عاشتها...، واستمرت تلك النظرة الوحدية، التي أصيبت بانتكاسة "الأحادية" الضيقة، في التفكير والممارسة والتنظيم، التي كانت سببا في عدم الاستفادة من الكثير من الطاقات النيرة، والخبرات المخلصة.

فما أحوج الأمة إلى تلك الوحدة التي صممت على مجابهة الاستعمار وهزمته، وصممت على أنها صاحبة مشروع وحقت الكثير منه رغم ضعف التخطيط وقلة الإمكانيات، ولا زالت قادرة، ولكن ينقصها تجديد الوعي بالمشكلة وآليات المرحلة.

الهوامش

1- أنظر: د. أبو القاسم سعد الله تقديم كتاب، في قلب المعركة.